٣

دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

تراث طه حسين

المقالات الصحفية من ١٩٠٨ - ١٩٦٧

طه حسين والسياسة المصرية

دراسة
د. أحمد زكريا الشلق

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

وبالرغم مما سبق لم ينضم طه حسين إلى حزب الأمة ، وإنما كان مجرد أحد الكتاب الذين وجدوا فى صحيفته وفكرها التحررى ، سبيلاً ووسيلة لنشر مقالاتهم ، ولم يهتموا «بسياسة الحزب» وإنما انصبت كتاباتهم على الدراسات الأدبية والاجتماعية والفكرية التى تتفق بشكل عام مع خط الحزب الإصلاحى ، وكان شأنه شأن عباس العقاد ، الذى كان أول من أبرق للحزب فور قيامه معلنا تأييده ، ثم كتب العديد من المقالات على صفحات جريدته ، وكذلك فعل سلامة موسى[١٢] . . لقد كان طه حسين يدين للطفى السيد ، رئيس تحرير الجريدة وسكرتير الحزب بكثير من الدعم والتشجيع . كما كان معجبًا بأستاذه محمد عبده من قبل .

والواقع أن طه حسين عندما حدثنا عن صلته بقادة الحزبين ، الوطنى والأمة ، خلال هذه المرحلة من حياته ـ مرحلة ما قبل ثورة ١٩١٩ ـ لم يكن يتحدث عن اتجاهات ومواقف سياسية بقدر ما كان يتحدث عن «علاقات شخصية» دافعها الاعتراف بالفضل . خاصة للشيخ جاويش وللطفى السيد ، وكانا من كبار الكتاب آنذاك ، وعن صحف تنشر له فى مقتبل حياته الفكرية ، ومن هنا كان تركيزه على تأثير كل منهما فى تطوره العقلى والوجدانى وفتحهما آفاق الكتابة والنشر أمامه . ويرجع ذلك بطبيعة الحال - كما يقول الأستاذ رجاء النقاش[١٣] ـ إلى أن طه حسين كان أديبا مفكرا بالدرجة الأولى ، وأنه عندما دخل ميدان السياسة ، لم ينس أبدا أنه دخل هذا الميدان الصاخب العنيف كأديب مفكر ، ولم يدخله كسياسى محترف . ورغم هذه العلاقات فإن القوى السياسية التى ارتبط بها طه حسين لم تستطع أن تحوله إلى سياسى حزبى بالمعنى المقصود ، وإنما هو الذى استطاع أن يفيد منها لخدمة أفكاره وقضاياه وتحقيق طموحاته .

وبرغم اقتراب طه حسين فترة من شبابه بالحزب الوطنى (١٩٠٩ - ١٩١٢) بتأثير جاويش ولفرص النشر التى أتاحها له ، إلا أن طه حسين بحكم تطلعاته الفكرية كان أميل إلى حزب الأمة على وجه العموم ، ليس باعتباره حزبا سياسيًا وإنما لكونه يضم لفيفاً من الكتاب والمثقفين ، اتسعت آفاقهم لقناعاته وتوجهاته الفكرية ، فجذبه المناخ الفكرى لا الحزب . . فقد كان هذا المناخ المبشر بالأفكار التحررية والساعى نحو تجديد الفكر السياسى والاجتماعى هو المجال المحبب للكاتب الشاب ، ومن هنا ازداد ارتباطه به خاصة بعد عام ١٩١٢ ، وقد صار طه أكثر نضجاً وصاحب قلم ورأى ، لذلك راح يسهم

بكتـاباته فى هذا المناخ عن قناعة تامة ، دونمـا ضـرورة لأن يحـبس نفسـه فى الإطار التنظيمى أو السلوك السياسى لحزب الأمة .

ـ ٢ ـ

سافر طه حسين إلى فرنسا عام ١٩١٤ ليدرس للدكتوراه ومكث فيها سنوات الحرب العظمى الأولى حتى فرغ من رسالته عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» فى جامعة السوربون عام ١٩١٨ والملاحظ أن اختياره لهذا الموضوع لم يكن يخلو من مضمون سياسى يتعلق بالفكر فى بعض جوانبه ، ويبدو هذا واضحاً عندما عكف على تحليل الظواهر الاجتماعية وعرض أفكار ابن خلدون ومذهبه السياسى والاجتماعى ، فمثلا ناقشه طه حسين فيما ذهب إليه من أن العرب ليسوا أهلاً لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر دينى قوى وأنهم يجهلون سياسة الملك . . الخ وقد فنَّد طه حسين هذه الآراء فى صلب رسالته ودحضها بشكل علمى يلفت النظر إلى ثقافته وقدرته على النقد[١٤] .

وعندما يصل سعد زغلول ورفاقه من أعضاء الوفد المصرى إلى باريس فى مايو ١٩١٩ لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ، كان طه حسين لايزال هناك ، ورأى واجباً عليه أن يذهب إلى حيث يقيم الوفد وزعيمه لتحيته ، ففعل دون حماسة ، حيث لقى سعدا ، كما لقى لطفى السيد و عبد العزيز فهمى ، ورأى طه أن عليه أن يشكر سعدا لموقف قديم وقفه إلى جانبه فى الجمعية التشريعية عام ١٩١٤ ، حين تقدم أحد أعضائها يقترح أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها خرجت ملحدا هو صاحب ، «ذكرى أبو العلاء» لكبن سعد زغلول استطاع اقناعه بسحب هذا الاقتراح ولم يتعرض لطه حسين بسوء ، فرأى فى هذا اللقاء فرصة لشكر سعد لهذا الموقف واالثناء على جهده فى خدمة مصر وتضحيته فى سبيل الوطن والشعب ، وعندما أجابه سعد بأن جهودهم لم تغن عن الوطن شيئا بعدما أغلقت كل الأبواب دونهم وحيل بينهم وبين لقاء ممثلى دول مؤتمر الصلح ، رد طه بأن هذه الجهود توقظ الشعب وتنبهه لحقه وتدفعه إلى المطالبة به والجهاد فى سبيله .

وربما كان سبب عدم حماسة طه حسين للقاء سعد راجع لتأثير الشيخ جاويش وعدائه القديم لسعد ، وعندما لقى طه سعدا فى باريس مرة أخرى خلال زيارته الثانية بعد نحو عام ، لقيه سعد زغلول بشىء من الفتور ، الذى عرف طه سببه وهو أن جماعة

من تلاميذ الإمام محمد عبده أحيوا ذكرى وفاته فى الجامعة ، وعندما خطب طه فى الحفل زعم أن مصر مدينة فى يقظتها لثلاثة رجال هم محمد عبده الذى أحيا الحرية العقلية ، ومصطفى كامل الذى أذكى جذوة الحرية السياسية ، وقاسم أمين الذى أحيا الحرية الاجتماعية ، وعندما قرأ سعد زغلول هذا الحديث وجد على طه لأنه لم يذكره بين هؤلاء العظماء . . وعموما ظلت علاقة طه بسعد على هذا النحو من الفتور بل والنفور . حتى كان انقسام الأمة بين مؤيدين لسعد ومؤيدين لعدلى يكن بشأن من يمثل مصر فى المفاوضات مع بريطانيا ، الوزارة أم الوفد ، فهاجم طه حسين الوفد وسعد زغلول ، وكان ـ حسب تعبيره ــ «أطول الكتاب لسانا وأجرأهم قلما فى مهاجمة سعد زغلول قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه»(١٥) .

لقد كان طه حسين ممن يؤمنون بدور العلماء فى سياسة الدولة وشئون الحكم ، وقد ذكر أنه عندما كان يدرس فى باريس كان يتابع أنباء الثورة فى وطنه ، ويعتنى بذلك عنايه لاتقل عن عنايته بالدرس والتحصيل ، وقد تأثر بدروس أستاذه دوركايم عن الحكم الصالح المنتج الذى يحقق العدل ويكفل رقى الشعب ، والذى يجب أن تصير أموره إلى العلماء . . وليس غريبا أن يعود طه إلى وطنه مؤمناً بالثورة التى نشبت فيه ، ومؤمناً فى الوقت نفسه بأن عبئا خطيرًا من أعبائها سيقع على عاتق العلماء والمثقفين ،لقد كان يقدر أن الساسة الذين سيقودون الثورة سيختلفون فى يوم قريب أو بعيد ، ويعتقد أن المفكرين والعلماء سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون . . وكان مستيقنا أنهم لن ينحازوا إلى حزب من الأحزاب . ولن يكونوا كعامة الناس الذين يقادون ولايقودون ، ولم يكن يقدر أنه سيشارك فى السياسة من قرب أو بعد . . على أنه لم يكد ينفق فى مصر شهورا حتى تبين أنه كان واهما وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التى يعيشون فيها . . بل قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات التى يذهبون مذهبها(١٦) .

وها قد وجد طه حسين نفسه ضمن هؤلاء الناس ، ينحاز لما ينحاز إليه هؤلاء أو أولئك ، فلما وقع الخلاف الشهير بين الوفد ووزارة عدلى يكن عام ١٩٢١ بشأن من يجرى المفاوضات ، ورغم أنهم كانوا يؤمنون جميعا بحق مصر فى الاستقلال ، كانوا يختلفون فى مظاهر المفاوضة ، لأن الذى سيجريها سيتحقق استقلال مصر على يديه إن قدر له

النجاح . وانقسم الناس إلى فريقين ، فريق يقول لا رئيس إلا سعد ، وفريق يقول إنما المفاوضات لمن ولى الحكم . . ورأى طه حسين نفسه مع هذا الفريق الأخير ، يميل إلى الوزارة وإلى تولى عدلى المفاوضة «وإذا هو ينفق أقصى ما يملك من العنف فى مهاجمة الوفديين ، وعندما يعود عدلى من المفاوضات مخفقاً ، يذهب طه ليستقبله مع المستقبلين هاتفا : ليحى عدلى . .»(١٧) وهكذا صار طه حسين عدلياً مع العدليين! ! .

وبعد عودة طه حسين إلى مصر ، جاء ت إليها لجنة ملنر فى ديسمبر١٩١٩ وسرت فى أنحاء البلاد حركة لمقاطعتها كما هو معروف ، فيتحدث طه إلى أستاذه لطفى السيد معبرا عن اغتباطه بيقظة المصريين وتصميمهم على الحصول على الاستقلال . فيحدثه لطفى عن ضرورة أن يفكر المصريون فى طبيعة الحكم الوطنى بعد الاستقلال وأنه لابد أن يحكم الشعب نفسه بنفسه حكما ديمقراطيا ، حينئذ يمضى طه ، وقد عين مدرساً بالجامعة المصرية ، واختار أن يدرس للطلاب دروس التاريخ اليونانى والرومانى ، فجعل يعلمهم نظم الديمقراطية الأثينية من كتاب أرسطو طاليس ، وكانت فكرته أن تدريس التاريخ السياسى والدستورى عند القدماء هى بداية لدراسة أصول النهضة المعاصرة . . إذن فهذا الدرس الأكاديمى الذى اختار الأستاذ الشاب أن يلقيه على طلابه فى العام الدراسى ١٩١٩-١٩٢٠ لم يكن منبت الصلة بما يجرى خارج أسوار الجامعة ، بل كان شديد الإتصال بما يشغل باله وبال غيره من المفكرين ، أى بطبيعة الحياة التى ستحياها مصر بعد الاستقلال(١٨) . . ثم لم يلبث طه حسين أن نشر ترجمة لكتاب «نظام الأثينين» لأرسطو طاليس عام ١٩٢١ ، مما يعد مساهمة علمية فى مرحلة كانت مصر تسعى فيها لإقامة حياة دستورية سليمة ، وبعد ذلك بنحو عام تألفت اللجنة التى عكفت على إعداد الدستور الذى صدر عام ١٩٢٣ .

وعندما تفاقم الخلاف بين سعد وعدلى وازداد انقسام الأمة وتحزبت البلاد وكانت الأغلبية خلف سعد ، وخرجت الجماهير تهتف «لا زعيم إلا سعد» خرج طه حسين عما كان يأخذ نفسه به ويرى أن يأخذ العلماء أنفسهم به من الابتعاد عن الانحياز للأحزاب ، وراح يكتب أن القول بأن لا زعيم إلا فلان أمر مرفوض لأنه فيه مصادرة لأصحاب الآراء الأخرى ، ورغم أن طه كان يدرك أنه بهذا الموقف سيجر سخط الجماهير عليه ، لكنه كان يكره الطغيان فى شتى صوره حتى ولو كان طغيان الشعوب . . وقد وصف صراع العدليين مع السعديين معبرًا عن رأيه فى مقال له بالأهرام فى يونيو١٩٢١ ذكر فيه أن ما يقع فى

مصر من اضطراب ومظاهرات ليس إلا حربا بين مبدأين : أحدهما مبدأ قيادة الجمهور إلى منفعته المحققة من طريق النظام والقانون ، أى من طريق الديمقراطية المعتدلة المنظمة ، والآخر الاستئثار بما للجمهور من قوة وسلطان ، والاستبداد باسم هذا الجمهور وسلوك الطرق المعقولة وغير المعقولة إلى إكراه الخصوم على الإذعان(١٩) .

ولكن طه حسين يعلو على روح التحزب عندما تكون هناك مسألة وطنية . فبالرغم من معاداة ومهاجمة السعديين لوزارة عبد الخالق ثروت (مارس - نوفمبر١٩٢٢) التى يؤيدها أنصار عدلى ، ويرى طه أن عددا من رجال الوفد يقدمون للمحاكمة أمام محكمة إنجليزية ويرفضون الدفاع عن أنفسهم أمامها ، يثور طه على أصدقائه العدليين ويقول : إننى لست مع الوفد ، ولكننى لا أستطيع أن أرى الناس يقفون أمام محكمة يرأسها الأجانب ولا أستطيع أن أبقى غير مكترث إزاء هذه الإهانة الكبيرة التى توجه إلى كرامتنا ويصف العدليين بالجبن ويذكر «إننى عدلى ، بل أكثر عدلية من هؤلاء الناس ، ولكن هل المسألة مسألة عدلى أو سعدى؟ أو ليست هى قضية مصر؟» ويذهب إلى ثروت محتجاً على موقف وزارته إزاء ما يحدث لرجال الوفد . . ويبدو أن ذلك كله قد دفع بطه حسين إلى أزمة نفسية حادة تجاه مايراه ، وقد عبر عن حالته فى حديثه لزوجه حين ذكر أننا «بحاجة إلى حكومة حازمة قاسية ومنظمة ، هذه الحكومة ليست حكومة ثروت ولاهى حكومة الإنجليز ، فهل تمنحنا إياها الحياة الدستورية؟ إننى فى انتظار ذلك أخبرك بأننى سأتخلى عن السياسة ، وأكرس نفس لعملى كأستاذ وعالم تاركا الميدان للثرثارين والوصوليين» .

غير أن طه لايستطيع أن يتخلى عن السياسة ، فقد شكلت لجنة لإعداد الدستور ، وعندما يصل إلى علمه محاولات القصر التدخل فى عملها للحد من حرية المعتقدات والانتقاص من سلطة الأمة يجد طه نفسه يهاجم القصر ، ليس دفاعا عن الوزارة وإنما انتصاراً لسلطة الأمة . وعندما أدانت المحكمة أعضاء الوفد استاء طه استياءً شديدا وذهب لمقابلة رئيس الوزراء وذكر له أن الأحكام تعد إهانة لبلد يدعى الاستقلال وأن على الحكومة أن تحتج على ذلك على أقل تقدير ، كذلك فكر طه أن يقوم بحملة يطلب فيها إلى لجنة الدستور (لجنة الثلاثين) أن تتخذ إجراءات لصالح المعتقلين ، لكنه علم أن الإعتقال لن يدوم طويلاً ، إذ ما أن يجتمع البرلمان حتى يلغى الأحكام العرفية ويفرج عنهم . .(٢٠) .

ولما كان طه حسين مؤمناً باتجاه العدليين وأسلوبهم فى العمل الوطنى ، كان طبيعياً أن يؤيد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى صرحت فيه بريطانيا بانهاء حمايتها على مصر ، وباستقلالها استقلالاً متحفظاً عليه بتحفظات أربع ، مما اعتبر فى نظر طه حسين خطوة تفتح بابا لإتمام الاستقلال ، وقد رأى أن هذا التصريح رد إلى العدليين - أنصار وزارة ثروت الذى صدر التصريح فى عهده - شيئاً من ثقة وكثيرا من أمل «فقد ظفر ثروت باشا ببعض الحق ، وشئ خير من لاشىء» ورأى أن التصريح أتاح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها وأتيح للشعب أن يكون له دستور وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة ، وقد أصبح السلطان ملكا ، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الاجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التى كان الانجليز قد ألغوها عندما أعلنوا الحماية عام ١٩١٤ لقد رأى طه حسين « أن ذلك كله يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئا من حقائقه مهما يكن قليلا فإن له مابعده» ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ، ويرونه شرا ونكرا ، ويرون قبوله جريمة وإثماً ، ويمضى طه حسين فى تأييد ثروت والعدليين ، والخلاف تزداد ناره اضطراما وهو « ماضٍ مع أصحابه فى إذكاء هذه النار ، لايعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون ، وإنما هو مقتنع بأن شيئا خير من لاشىء وبأن هذه المظاهر ستصبح فى يوم من الأيام حقائق إن عرف المصريون كيف يحزمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم ويحسنون انتهاز الفرص»[٢١] .

-المهم أنه فى أعقاب صدور التصريح شرع ثروت باشا يعد العدة لوضع دستور لمصر فى عهدها الجديد ، فألف لجنة من ثلاثين عضوا أغلبهم من فقهاء القانون ، شرعت فى عملها ، وأخذت موضوعها بجدية صادقة ، لتضع لمصر دستورا ديمقراطيا ، يخول الشعب من الحقوق ما لايريد القصر أن ينزل عنه ، وإذا بالسلطان يمكر بالوزارة واللجنة ، فيظهر الخلاف بين الوزارة والقصر بشأن ديمقراطية الدستور ، وطه حسين ماضٍ فى تأييده لدستور ديمقراطى غير ملقٍ بالاً إلى القصر ولا إلى صاحب القصر «الذى أحسن لقاءه ومنحه كثيرا من العطف والبر والتشجيع» وعندما ينبئه ثروت باشا بأن القصر ساخط عليه ، وأنه يحاول إصلاح الأمر ، فيرد عليه طه حسين بأن عليه أن يصلح الأمر بين الوزارة والقصر إن وجد إلى ذلك سبيلا[٢٢] . . وبطبيعة الحال لم يستطع ثروت اصلاح الأمر كله مما أدى به إلى تقديم استقالة وزارته .

ويتم إعلان الدستور ليصدر فى ١٩ إبريل ١٩٢٣ كما أعدته اللجنة وبعد أن جرت به بعض التعديلات ، ويختفى من نصوصه لقب «ملك مصر والسودان» فيكتب طه حسين فى ٢٥ أبريل منددا بهذا الإهمال وبهذه السهولة التى أظهرتها الوزارة المصرية فى إسقاط هذا اللقب . . المهم أن طه حسين لم يستطع أن يبتعد عن السياسة بل على العكس وجد نفسه متورطاً فيها غارقا حتى أذنيه ، لقد كانت مصر فى مرحلة تحول مهمة لم يكن بوسعه إلا أن يدلى بدلوه فيها . . وقد رآه السعديون ـ حسب قوله ـ مارقاً مالأ المارقين ، ورآه القصر كافرا بالنعمة جاحدا للجميل . بينما يرى أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن مايكون . . لقد رأى أنه لم يستطع أن يبتعد عن السياسة والسياسيين وأن يفرغ للعلم والتعليم ، ذلك أن الظروف التى أحاطت بوطنه جعلته يدرك أن الحيده بالنسبه له إثم لايغتفر ، بل رآها جبنا ونفاقا ، لذلك كان لابد أن يغرق فى بحر السياسة وأن يحترق بنارها وأن يحتمل تبعات ذلك « وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه نارها ؟»(٢٣) .

جمع أنصار عدلى يكن صفوفهم وقرروا تأليف حزب سياسى فى أكتوبر ١٩٢٢ هو «حزب الأحرار الدستوريين» ليخوض غمار الحياة السياسية ومصر تستقبل عهدا جديدا بالدستور الذى جعلها على أعتاب حياة برلمانية ، كما أن المسألة الوطنية دخلت فى طور جديد من التفاوض على أساس تصريح فبراير ، وقد حرر لطفى السيد خطاب افتتاح الحزب الجديد حيث ضمنه أسس سياسة الحزب ومبادئه ، واتفق على أن يتولى رئاسة تحرير صحيفته الدكتور محمد حسين هيكل ، ويلاحظ أن الحزب الذى ترأسه عدلى يكن كان يضم صفوة من أصدقاء طه حسين على رأسهم ، إلى جانب لطفى السيد وهيكل ، حسن عبد الرازق وعبد العزيز فهمى ، فضلاً عن محمد محمود وحافظ عفيفى . ومن المعروف أن عبد الخالق ثروت رئيس الوزارة يعد من معسكر هذه الجماعة التى ألفت الحزب ، ومن أصدق أصدقائها ، وقد بذلت وزارته جهودا كبيرة فى تشكيل الحزب وتأسيس صحيفته ، وبالرغم من ذلك لم ينضم رسميا للحزب ، وإنما ظل أحد أصدقائه وكبار معاونيه ، وظل اتجاهه السياسى هو اتجاه الأحرار الدستوريين ، وإن فضل أن ينأى بنفسه عن قيود الحزبية محتفظاً لها بحرية الحركة السياسية(٢٤) .

د. محمود جامع

وعرفت الإخوان

رأيكم، وأسأل الله تعالى أن يعينني» وتعانق الجميع، وأخطرت الهيئة التأسيسية للإخوان، وكان طلب الهضيبي: إصراره على أن يقوم الأعضاء جميعًا بالتوقيع على وثيقة بالموافقة على ترشيحه.. ووافق الجميع ولم يتخلف أحد عن التوقيع.

وتسلم حسن الهضيبي الأمانة الغالية والثقيلة، وأخذ يدير شئون الجماعة بعقل صاف، وحكمة بالغة.. وكان قليل الكلام.. فعندما يتكلم فإن لكل كلمة ميزان خاص.. ولم يكن خطيبًا مفوهًا، أو داعية إسلاميًا مثل حسن البنا؛ كان شخصية مختلفة تماماً، ولكن.. كان لديه إخلاص وعمق وإيجابية بلا حدود.

أذكر أن أحد زملائي من طلبة كلية الطب سأله أثناء حديث الثلاثاء في المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية سؤالاً، ولم يكن هذا الزميل من أعضاء الإخوان المسلمين، سأله (يا فضيلة المرشد هل الحب حلال أم حرام؟) فأجابه رحمه الله قائلاً: (الحب الحلال حلال والحب الحرام حرام)، ودُهش الطالب لهذا الرد البليغ.. وانضم إلى الإخوان المسلمين على الفور.

ويذكر الهضيبي عن نفسه أنه أثناء شبابه كان عضواً بجمعية سرية وطنية تسمى نفسها (جمعية اليد السوداء) وكانت برئاسة الزعيم «محمد فريد» رئيس الحزب الوطني، وكان زملاؤه في الخلية (حسن مختار رسمي باشا) وكيل وزارة المالية فيما بعد، و(مغازي البرقوقي) الذي أصبح وكيل مجلس النواب الوفدي فيما بعد، و(أمين صدقي) الذي أصبح محاميًا لامعًا فيما بعد وحصل على الدكتوراه في الحقوق، و(عبد الخالق عطية) وكيل مجلس النواب فيما بعد، وكانت الجمعية السرية عبارة عن خلايا من خمسة أشخاص يعرفون بعضهم فقط، ولا يعرفون بقية الخلايا.

وقد قام أحد أعضاء الجمعية السرية وهو [إبراهيم الورداني] باغتيال «بطرس غالي باشا» رئيس الوزراء لأنه اتفق مع الإنجليز على الحكم الثنائي بالسودان، وأراد تجديد اتفاقية قناة السويس.

وكان للهضيبي نشاط سياسي مستمر، وحدث نتيجة لذلك أنه فُصل سنة من

كلية الحقوق، وفصل بعض زملائه نهائيًا وآخرون لمدة سنتين، وذهب الهضيبي إلى «سعد باشا زغلول» واشتكى له، ووعده سعد باشا أنه سيبذل كل جهده لإلغاء القرار.

وتنبأ الهضيبي لسعد زغلول بقيادته لمصر ولثورة مصر ١٩١٩م وصدقت نبوءته.

وكان صديقًا صدوقًا للإمام حسن البنا، يجتمع له بين حين وآخر سرًا وعلى انفراد للتشاور.. حتى بعد حل الإخوان، وكان يجلس معه في درا الشبان المسلمين، وقد لاحظ الإخوان أن حسن الهضيبي بعد اختياره مرشدًا كان يعرف كل تفاصيل الدعوة وأسرارها وتقييم قيادتها، وذلك دليل على أن حسن البنا كان يفضي له بكل أسراره وهمومه ومشكلات الجماعة.

وفي عهده ذهبت كتائب متطوعي الإخوان المسلمين إلى الإسماعيلية والتل الكبير لمقاتلة الإنجليز في معسكراتهم وأبلوا بلاءً حسنًا واستشهد كلٌ من الطالب «عمر شاهين» بكلية الآداب (١٩ سنة)، الطالب «أحمد المنيسي» بكلية الطب (١٩ سنة) في معركة ضارية بالتل الكبير قُتل فيها حوالي ثلاثين جنديًا إنجليزيًا.

وكان مشهداً مؤثرًا لا أنساه عندما رأيت هذ الرجل العظيم المسن حسن الهضيبي يحمل نعش الشهيد عمر شاهين على كتفه وفي الطرف الآخر «الدكتور عبد الوهاب باشا مورو» الجراح العالمي ورئيس جامعة القاهرة، والدكتور «عبد الله الكاتب» الجراح العالمي وعميد كلية الطب، يمشون على أقدامهم ويحملون نعش الشهيد في مظاهرة هادرة من مبنى إدارة الجامعة بالجيزة حتى جامع الكخيا بميدان إبراهيم باشا حيث صُلّي عليه، واستمعنا جميعًا إلى خطبة تاريخية نارية بليغة مؤثرة غاية التأثير من الطالب المجاهد (حسن دوح) زعيم طلاب الإخوان المسلمين بجامعة القاهرة وزعيم الفدائيين والطالب بكلية الحقوق، ولا أنسى قوله (لقد استشهد الأخوان عمر شاهين وأحمد المنيسي وليستشهد فؤاد سراج الدين وزير الداخلية، وليستشهد مصطفى النحاس رئيس الحكومة، وليستشهد أكبر رأس في الدولة).. يقصد الملك فاروق.

وكان المرحوم عمر شاهين يدرس لنا المصارعة اليابانية التي كان أحد أبطالها،

وكان الشهيد أحمد المنيسى زميل دراسة وأخ فاضل يفيض بالرقة والإيمان والسماحة، وكان مصراً إصراراً عجيباً على التطوع والسفر إلى القناة.

وقام الإخوان ببطولات عظيمة فى الإسماعيلية ضد القوات الإنجليزية فى منطقة القناة، وكان يشرف على تنظيم وتمويل وتسليح كل هذه التشكيلات الفدائية من الإخوان [المرحوم الشيخ محمد فرغلى] عضو مكتب الإرشاد، والذى أعدمه عبدالناصر بعد ذلك سنة ١٩٥٤م، واتهم بأنه كان يخزن السلاح لقلب نظام الحكم!!

وكان الإنجليز يخصصون جواسيس لتقصى أنباء الإخوان المسلمين فى القاهرة والأقاليم ومنطقة القناة، ليعرفوا تحركاتهم وأخبارهم، ونشر هذا الخبر فى حينه نقلاً عن وكالة «الأسوشيتدبرس» حتى أنهم كانوا يقولون إن بعض الفدائيين من الإخوان كانوا يجيدون اللغة الإنجليزية، والغريب أنه أثناء تشييع جنازة الشهداء عادل غانم وأحمد المنيسى وعمر شاهين فى الزقازيق، تقدم أحد العمال المأجورين والمدفوعين إلى سرادق المشيعين ووزع إعلاناً لأحد دور السينما تعرض أحد الأفلام، فما كان من المشيعين إلا أن اعتدوا بالضرب على العامل ودمروا دار السينما؟!

أليس المشيعون معذورين فى تصرفهم ،وهل يعقل أن يوصفوا بالإرهابيين.

وفى هذه الأثناء توجه (كريم ثابت باشا) المستشار الصحفى للملك فاروق إلى منزل المستشار حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان وأخبره بأن الملك فاروق يطلب منه الحضور فى ٢١/ ١١/ ١٩٥١م إلى قصر القبة لمقابلته والتحدث معه، فأخبره الهضيبى أنه لا يستطيع أن يوافق على ذلك إلا بعد عرض الأمر على مكتب الإرشاد، ووافق مكتب الإرشاد، وهنا طلب كريم ثابت من الهضيبى ضرورة ارتداء بدلة الردنجوت عند مقابلة الملك، فأخبره الهضيبى أنه لا يملك بدلة ردنجوت؛ فأرسل كريم ثابت باشا إلى الهضيبى فى منزله بدلتين ردنجوت لارتداء إحداهما، ولكن حسن الهضيبى أصر أن يقابل الملك بملابسه العادية حتى ولو أدى الأمر إلى إلغاء المقابلة، فأذعن كريم ثابت لرأى الهضيبى مكرهاً، وتمت المقابلة بقصر القبة واستغرقت خمساً وأربعين دقيقة ونشرت الصحف هذا الخبر، ولم يصرح فضيلته

للصحف بأى شىء عن هذه المقابلة علمًا بأن هذه أول مرة يقابل فيها الملك شخصًا لا يرتدى الردنجوت.

وحضر الملك إلى مكتب السكرتارية وسلّم عليه الهضيبى معتدل القامة شامخًا.. وأخذه الملك من يده مصطحبًا إياه إلى غرفة مكتبه، وجلس الهضيبى إلى جواره على كرسى وأخذ الملك يرحب بالهضيبى.. ووجه إليه الحديث قائلاً: لا أدرى لماذا يسيىء الإخوان المسلمون الظن بى؟ فلم يرد عليه الهضيبى؛ وعاد يقول: إننى مسلم وأحب الإسلام وأتمنى له الخير، وقد أمرت بإنشاء مساجد كذا وكذا فلماذا يكرهنى الإخوان؟؟ ولم يرد الهضيبى أيضًا.

وعاد الملك يقول: إن الإخوان قد فهموا خطأ أننى أنا الذى أمرت بحلهم واعتقالهم، وباغتيال الشيخ حسن البنا، و هذا والله العظيم خطأ ولم أفعل من هذا شيئًا، والذى فعل ذلك هم السعديون، النقراشى وإبراهيم عبد الهادى، وفى اللحظة التى تمكنت فيها أقلت إبراهيم عبد الهادى، وأمرت الوزارة التى عينتها بالإفراج عن الإخوان، واستمر الملك فى استعراض تاريخه وما عمله من خير، ونسب كل عمل سيئ لغيره.. وبين لحظة وأخرى يقول لماذا يكرهنى الإخوان؟!... إذن .. والهضيبى لا يرد؟؟ وقال الهضيبى إننى سهوت عن نفسى وتنبهت فوجدت نفسى فى وضع عجيب!! وجدتنى جالسًا على الفوتيل واضعًا إحدى رجلى على الأخرى!! ففكرت فى الرجوع إلى الجلسة المناسبة ولكننى قررت ألا أغير هذا الوضع.. وظللت كذلك حتى انتهاء المقابلة.. حين سأله الملك: ما رأيك يا حسن بك فى كل ما قلته، وفى أننى على استعداد أن أعمل للإسلام؟! فرد عليه الهضيبى قائلاً: إننى سأعرض ذلك على الإخوان ونسأل الله التوفيق، ثم قام الملك وصافحه وأوصله حتى باب مكتبه حيث تلقاه كبار رجال القصر حتى رجع إلى المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية.

وقال الأستاذ الهضيبى وهو يقص أحداث هذه المقابلة بعد سنوات طويلة.. إنه كان يشعر وهو يجلس مع الملك أنه أمام طفل صغير ولم يشعر نحوه برهبة أو حتى احترام.

وبعد المقابلة بيوم واحد حضر إلى المركز العام للإخوان المسلمين كريم ثابت باشا

ومعه صورة فاخرة للملك فاروق فى إطار فاخر (مهداة إلى صاحب العزة حسن إسماعيل الهضيبى بك المرشد العام للإخوان المسلمين) وموقعة بتوقيع الملك فاروق، وقدمها كريم ثابت إلى المرشد طالبًا تعليقها فى مكتبه، وبعد خروجه رفض الهضيبى تعليقها فى أى غرفة فى المركز العام، ولا فى منزله، وكانت ملقاة فى غرفة الحمام فى منزله، وقال الهضيبى [هذا هو مكانها].

حريق القاهرة ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢م.

فى أغسطس ١٩٥١م توقفت مباحثات حكومة الوفد مع الإنجليز التى كان مقصوداً بها إلغاء معاهدة ١٩٣٦ التى ثارت عليها الأمة بأكملها وجميع طوائفها كما ثار عليها أيضًا الإخوان المسلمون.

وفى ٨ أكتوبر١٩٥١م وقف النحاس باشا على منبر مجلس النواب وأعلن إلغاء المعاهدة من جانب واحد – هو جانب مصر – وقال مقولته التاريخية الشهيرة (من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦م ومن أجل مصر أقوم اليوم بإلغائها) وكانت خطوة وطنية تاريخية موفقة أسعدت جموع المواطنين ونالت رضا واستحسان الجميع.

وظن الإنجليز أن هذا الإلغاء لن يترتب عليه أى لون من ألوان الكفاح المسلح أو القرارات التى تعوق الوجود البريطانى فى القناة.. إلا أن النحاس باشا أصدر تشريعًا بسجن كل عامل يستمر بالقاعدة البريطانية وكان عددهم خمسين ألف عامل. وقامت وزارة الشئون الاجتماعية بدفع رواتب هؤلاء العمال كاملة.. بعد نزوحهم إلى القاهرة، كما أصدر قراراً وزارياً بمنع السكك الحديدية من نقل أى مهمات إلى القاعدة البريطانية.

واحتج السفير البريطانى على الحكومة المصرية متهمًا ضباط البوليس بأنهم يرتدون ملابس مدنية ويقومون بأعمال فدائية، فضلاً عن مصرع أكبر خبير إنجليزى فى شئون حرب العصابات.

وفى ديسمبر ١٩٥١م نشرت [جريدة التايمز] أن الجنود الإنجليز فى حيرة من جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت قيمتها بسبب النشاط المعادى الوطنى،

وأن الجهاد الديني تبدو أبعاده في المنطقة بشرعية سفك دماء الجنود البريطانيين وهذا يجعل الأمور خطيرة للغاية.

وفي يوم ١٢ يناير ١٩٥١م نسف الإخوان المسلمون قطاراً بريطانيًا محملاً بالجنود والأسلحة والذخائر، وقام بهذه العملية (الأخ عبد الرحمن البنان) في قصة بطولية نادرة.

وقامت القوات البريطانية بافتعال معركة مع البوليس المصري في الإسماعيلية حفظًا لماء الوجه، وقتل سبعون جنديًا مصريًا، كما قتل أربعون جنديًا إنجليزيًا، وصدرت الأوامر لقوات بلوكات الأقاليم بالجيزة بالتوجه إلى الإسماعيلية كتعزيز للقوات هناك بقيادة الضابط (عبد الهادي نجم الدين)، وفي ميدان الأوبرا تظاهر هؤلاء الجنود وحملوا قائدهم عبد الهادي نجم الدين على الأعناق وأخذوا يهتفون بسقوط الإنجليز وتجاوب معهم أفراد الشعب بما فيهم طلبة الجامعة، وسارت المظاهرة في الشوارع.

ويوم ٢٦ يناير ١٩٥٢م على وجه التحديد وفي ميدان الأوبرا، انفلت الزمام من يد القائد الضابط عبد الهادي نجم الدين، وبدأ الجنود في إشعال الحرائق في المحلات التجارية الإنجليزية، واستمرت القوات في إشعال الحرائق بفندق شبرد وغيره من الفنادق والمحلات الإنجليزية، وتضامن معهم طلاب الجامعة حتى أنه عندما صدرت الأوامر لقوات البوليس النظامي في الشوارع والميادين للتصدي لهم رفضوا ذلك.

واندفع الطلبة الثائرون إلى السفارة الإنجليزية يريدون اقتحامها، ولكن رجال البوليس منعوهم وضربهم الطلبة بالطوب والحجارة، وتمكن الطلاب من إحراق (المكتبة البريطانية) في السفارة، وتوجهوا إلى ميدان التحرير وأحرقوا (مكتب طيران الخطوط البريطانية) ثم توجهوا إلى (بنك باركليز) وسرقت منه أموال كثيرة، وتدخل الغوغاء ومحترفو السرقة والإجرام وأخذوا في سلب ونهب المحلات والبنوك، وهكذا بدأ حريق القاهرة؛ إلا أن انتشار الحرائق في أماكن مختلفة وسلبية رجال البوليس.. تركت الفرصة لعناصر متعددة لتفكر في الاستفادة من هذه

الكارثة، ومن هذه العناصر بعض العناصر الوطنية، وبعض العناصر التخريبية المدفوعة، وبعض العناصر من محترفى السرقة والنهب.

ونتساءل: هل كان هناك تدبير منظم ومحكم ومسبق لهذه الكارثة؟

الجميع يوجهون الاتهام للإنجليز، أو الملك فاروق، أو حكومة الوفد ممثلة فى فؤاد سراج الدين، أو أحمد حسين ممثلاً لبعض القوى الوطنية الثائرة ضد خيانة النظام، أو الجيش ممثلاً لبعض التنظيمات السرية الوطنية بقيادة جمال عبدالناصر، أو كل هؤلاء، وحتى الآن لم يجمع الناس على مسئولية جهة واحدة عن حدوث هذا الحريق.

يقول المرحوم الصاغ (صلاح شادى) ضابط الشرطة وعضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين وعضو التنظيم السرى للضباط الإخوان بل المسئول عنهم والصديق الصدوق لجمال عبد الناصر والضباط الأحرار.. يقول رحمه الله:

فى ظهر يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢م وهو يوم الحريق اتصل به «عبد الناصر» تليفونيًا وطلب منه سرعة الحضور إلى منزله لمقابلته فى أمر هام، فذهب إليه صلاح شادى فوجده فى حالة من الاضطراب الشديد لم يعهدها عليه من قبل وطلب منه الإسراع فى نقل أسلحة وذخائر موجودة لدى الضابط (مجدى حسانين) عضو الضباط الأحرار.. وكانت موجودة فى مدرسة الأسلحة الصغيرة، لخوفه من تفتيش المكان بسبب الحريق كما ادَّعى، وكرر عبد الناصر سؤاله لصلاح شادى [هو صحيح الإخوان ما اشتركوش فى الحريق ده] فأجابه بالقطع -بصفته مسئولاً- أن الإخوان لم يشتركوا فى ذلك.. لأنه لا يتسق مع مبادئنا وديننا، وكرر عبد الناصر سؤاله عدة مرات.

وتوجه صلاح شادى ومعه الإخوة (المستشار منير دلة)، و(المستشار عبدالقادر حلمى) عضوا مكتب الإرشاد إلى مدرسة الأسلحة الصغيرة، والتقوا بالضابط (مجدى حسانين) وأخذوا منه الأسلحة ونقلوها إلى منزل المحامى (حسن العشماوى) عضو مكتب الإرشاد والصديق الحميم لعبد الناصر ونجل محمد العشماوى باشا وزير المعارف وزوج شقيقة المستشار عبد القادر حلمى، ونقلوها

بعد ذلك إلى عزبة حسن العشماوى بالشرقية وقام جمال عبد الناصر بنفسه بالتخطيط للمخزن ودفن الأسلحة بنفسه حتى يتم حفظها وتخزينها بطريقة سليمة.

والعجيب أن جمال عبد الناصر بعدما تولى الحكم، قدم حسن العشماوى فى يناير ١٩٥٤م للمحاكمة، بتهمة تخزين أسلحة لقلب نظام الحكم، وأدخله السجن الحربى.. وهى الأسلحة التى خبأها عبد الناصر عنده ووضعها كامانة، رغم أنه سرقها من القوات المسلحة.

وأتساءل بهذه المناسبة: كيف نفسر الاضطراب الذى أصيب به عبد الناصر بعد حدوث حريق القاهرة، ولماذا أخفى هذه الأسلحة؟! فإذا كان الأمر بعيداً عنه فلماذا يريبه ويدعوه إلى هذا الاضطراب؛ علمًا بأنه مكث ثلاث ليال فى عزبة حسن العشماوى يخطط بنفسه المخزن الذى دفنت فيه الأسلحة تحت الأرض بثلاثة أمتار، وكان يُخشى تسرب المياه فتتلف الأسلحة، وتم ذلك فى سرية تامة.

وذكر المرحوم (حسن العشماوى) فى كتابه الإخوان والثورة (من صفحة ١٩ حتى صفحة ٢٤) قرائن تدل على دور عبد الناصر فى هذا الحريق، إذ إنه وجد ضمن المواد التى نقلها عبد الناصر إلى عزبة حسن العشماوى مادة (T. N. T) وهى التى ثبت فى التحقيقات بعد الحريق وتم تحليلها معمليًا بواسطة النيابة أنها المادة التى استُخدمت فى الحريق، ولا توجد هذه المادة إلا فى القوات المسلحة.

..فما هو تفسير ذلك؟ وقد قال عبد الناصر لحسن العشماوى بعد الحريق بمدة طويلة وقبل قيام الثورة: [لقد كاد الأمر يفلت من أيدينا!!].

وقد ذكر (حسين توفيق) أثناء وجوده فى سجن مزرعة طرة سنة ١٩٧٦م وقبل الإفراج عنه بقليل.. أنه شاهد بنفسه جمال عبد الناصر يوم الحريق ينقل إلى سيارته أسلحة أخذها من محل سلاح بميدان الأوبرا.

وقد لايكون عبد الناصر مدبراً للحريق، ولكن مما لاشك فيه وأكاد أجزم به أنه استغل أحداث الحريق.. والذى حقق فيه عبد اللطيف البغدادى فى محكمة الثورة، ولم يتهم أحداً.. وقرر أن الحريق حدث بسبب انفعال الجماهير وغضبها،

وأن عدوى التخريب والتدمير سرت بعد ذلك بين الجماهير على اختلاف مشاربها، ولايغيب عن بالنا ما قاله عبد الناصر بالحرف الواحد فى خطاب ١٩٦٠م فى حفل افتتاح مجلس الأمة بالنص:

«لقد كان حريق القاهرة أول بادرة للثورة الاجتماعية على الأوضاع الفاسدة، وحريق القاهرة هو تعبير شعبى عن سُخط الشعب المصرى على ما كانت ترزح فيه مصر من إقطاع واحتكار واستبداد رأس المال».

وكان تعبير عبد الناصر عن رأيه فى حريق القاهرة مثار ذهول من كل الناس، إذ أن الجميع يعتبرون هذا الحادث أبشع الجرائم ضد مصر.. فكيف يجعله عبدالناصر أول بوادر ثورته، ولقد أتاح الحريق للإنجليز وقف كفاح الشعب ضدهم فى القناة.. وأتاح للملك فاروق أن يعين الإنجليز على شعبه فى إسقاط حكومة الوفد الوطنية التى ساندت الشعب كل المساندة فى كفاحه الفدائى ضد الإنجليز.

وأثناء الوليمة المشهورة للملك فاروق فى قصر عابدين احتفالاً بولى عهده وأثناء الحريق تحدث [فؤاد باشا سراج الدين] وزير الداخلية تليفونيًا إلى [الفريق محمد حيدر باشا] وزير الحربية طالبًا نزول الجيش لحفظ الأمن ومنع انتشار الحرائق، ولكنه رد عليه قائلاً: إنه لابد أن يستأذن الملك.. وصدر الأمر من الملك الساعة الخامسة مساءً.. بعداستفحال الأمور وانتشار الحرائق، وطلب الملك من النحاس باشا إعلان الأحكام العرفية لتوريطه أمام الشعب، وفى نفس الوقت أقاله من منصبه كمرشد لمجلس الوزراء وعين رئيس وزارة جديدة ومنع نشاط الفدائيين، بل وطولبوا بتسليم أسلحتهم.

* * *